العالم الافتراضي والتحوّل الموضوعاتي في الرّواية العربية المعاصرة

The virtual world and the thematic transformation in the contemporary Arabic novel

حسين تروش*

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2-الجزائر terrouchehocine@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:22-06-2019 تاريخ القبول:09-07-2019 تاريخ النشر: 30-06-2020

ملخّص: يركّز البحث على التحوّل الموضوعاتي الذي طرأ على الرواية العربية المعاصرة بسبب التأثير العميق لوسائط الاتصال الحديثة، والذي أنتج رواية جديدة تصوّر العالم الافتراضي الجديد بتقنياته المختلفة، راصدة العلاقة التي نشأت بين الإنسان وهذا الواقع.

وإذا كانت المضامين التقنية هي ما يهمّنا، فلا بدّ من الإشارة إلى أنّ أشكال ظهور العالم الافتراضي، ووسائطه المختلفة في الرواية العربية قد تنوّعت من كاتب إلى آخر، ليكون المنطلق عندهم جميعا واحدا، وهو العالم الأزرق، وتكون الدلالات مختلفة من نصّ إلى آخر، بل وقابلة للتأويل من قارئ إلى آخر، ومن هذه الروايات وتيماتها الجديدة:

1-الهوية الرقمية في رواية في كلّ أسبوع يوم جمعة لإبراهيم عبد المجيد

2-الحب الالكتروني في صمت الملائكة ابتسام ياسين

3-الحرّية الالكترونية في رواية حرّية دوت كوم لأشرف نصر

4-عالم الأنترنت العميق في رواية أرض السافلين لأحمد خالد مصطفى

كلمات مفتاحيّة: العالم الافتراضي، الرواية، التحول الموضوعاتي، التيمات، الالكترونية، الرقمية.

Abstract: The research focuses on the thematic transformation of the contemporary Arabic novel because of the profound influence of the modern communication media, which produced a new novel that depicts the new virtual world with its different techniques, which balances the relationship that arose between man and reality.

If the technical implications are what interests us, it must be pointed out that the forms of appearance of the virtual world, and its various media in the Arab novel

* المؤلف المرسل

have varied from writer to writer, to be the starting point for all of them one, the blue world, and the connotations are different from one text to another, And can be interpreted from one reader to another, and from these novels and new timings:

1 - Digital identity in a novel every week on the Friday of Ibrahim Abdul Majid
2 - Electronic love in the silence of the angels Ibtisam Yassin
3 - Electronic freedom in the novel of freedom.com to Ashraf Nasr
4- The world of deep internet in the novel of the land of the Savlin by Ahmed Khalid Mustafa

Key words: virtual world, novel, thematic transformation, Themes, electronic, digital

مقدّمة: فرضت العولمة الالكترونية مفاهيمها الجديدة للأشياء، ليظهر مفهوم مغاير للرواية تتداخل فيه الفنّية والتكنولوجية، وهو مفهوم لا يخرج عن حدود الخيال المعروفة، غير أنّ الفرق بين الخياليين أنّ الرواية القديمة كانت تنطلق من الحلم، أما الرواية الجديدة فتنطلق من المعرفة، لأنها مغامرة في الزمن الرقمي الافتراضي وفي المكان الرقمي الافتراضي وفي الواقع الرقمي الافتراضي، ذلك لأنه ليس إلاّ الخيال الذي هو المعرفة.

ونتيجة لهذا التلاقح بين فن الكتابة والتطوّر التقني ولدت الرواية الالكترونية، وهي جنس أدبي سمح لفعل الكتابة أن يتحوّل من الورقي إلى الالكتروني، ولمضامينه أن تختلف من الواقعية إلى التقنية، ولأنساق الكتابة أن تتغيّر من الخطيّة إلى التفاعلية

ورغم أنّ الفضاء الافتراضي خلق عالما جديدا، إلاّ أنّه مواز وذو وشائج مع العالم الواقعي، والرواية الالكترونية هي التي أبرزت هذا التواشج من خلال نصوص معاصرة اتّخذت من جنس الرواية مساحة للتفاعل بين الواقعية والتفاعلية، لينتج مصطلح الرواية الواقعية التفاعلية.

فكيف حوّلت هذه الوسائط التفاعلية التواصل من الاجتماعي إلى الأدبي؟، وما الأشكال الجديدة التي اتخذها فعل الكتابة الروائية، وما التيمات التي نتجت عن هذا التلاقح؟

1-أدوات الاتصال من التواصل الاجتماعي إلى التواصل الأدبي: أدوات الاتصال أو الوسائط الالكترونية هي علامة العصر الذي يمكن أن نطلق عليه عصر تكنولوجيا المعلومات، وفيه يتغير نمط التفاعل المعرفي وعاداته، من الأفقي المباشر إلى متعدد الاتجاهات والمصادر من خلال "الاختزان الرقمي للمعلومات مع تطويعها وبثها وتوصيلها وعرضها إلكترونيا أو رقميا عبر شبكات الاتصال، هذه المعلومات قد تكون في شكل نصوص، صور، رسومات يتم معالجتها آليا "[1].

وبذلك فهذه الوسائط تمثّل "منظومة من الشبكات الإلكترونيّة التي تسمح للمشترك فيها بإنشاء موقع خاص به، ومن ثمّ ربطه عن طريق نظام اجتماعي إلكتروني مع أعضاء آخرين لديهم الاهتمامات والهوايات نفسها"[2].

لذلك يمثّل التواصل الالكتروني عبر مواقع الانترنت انفتاحا على العالم إلكترونياً عبر الشبكة الدولية للمعلومات، وتفعيل وسائل عرض المعلومات واستخدام النوافذ والصفحات والمواقع المتاحة والتي يمكن أن تكون وسائط متاحة بين جمهور المهتمين في المجال الواحد[3].

مما يخدم كلّ المجالات الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، لأنّ وسائل التواصل الإلكتروني توفر مجالات للتواصل بين الأشخاص بطرق مختلفة منها الكتابية النصية والصوتية المرئية وما توفره كذلك شبكة الانترنت من وسائل الراحة والترفيه والتسلية والترويح عن النفس، كما أنها تعطي مجالاً للأفراد للتعبير عن آرائهم واتجاهاتهم بكل حرية بعيداً عن الضغوط الاجتماعية والسياسية.

أما التواصل الإلكتروني الأدبي فهو الذي يوظف معطيات التكنولوجيا الحديثة في تقديم جنس أدبي جديد يجمع بين الأدبية والالكترونية، ولا يمكن أن يتأتى لمتلقيه إلا عبر الوسيط الالكتروني، أي من خلال الشاشة الزرقاء[4].

فقد صارت هذه الشاشة "وسيلة وعالما وواقعا موازيا، جزءا من تكوين النص فإذا كان المبدع يأخذ في حسبانه وسائل النشر المتاحة أمامه وحاجات القراء المتلقين، فإنه بلا شك سيبدع ضمن هذه الدائرة التي ستؤثر على مجمل العملية الإبداعية تأليفا وتكوينا وتشكيلا وتلقينا وأيضا تواصلا"[5].

لقد تغيّرت طرائق الكتابة الأدبية التي استمدّت من الواقع الالكتروني الجديد مظاهرها المستحدثة، كما فرضت هذه الصيغ والطرائق الجديدة على القارئ، تجديد سنن وآليات تلقيه للنصوص الإبداعية، لأن الآليات القديمة لم تعد قادرة على مواكبة الأشكال الجديدة التي أضحت ورشات مفتوحة أمام إمكانيات التجريب والتجديد المستمرين[6].

2- الكتابة الروائية الالكترونية من الإبداع إلى التلقي: في ظل العولمة احتلت الصورة واجهة المشهد، ففرضت نفسها في مجال الإعلام، والدراما السينمائية والتلفزيونية، وحضرت بقوة في مجال الإبداع الأدبي، والدراسات النقدية[7]، وقد أفاد الأدب الغربي مبكرا كالعادة من التطورات التكنولوجية، وطوّعها لخدمة العملية الإبداعية، وفتح آفاق هائلة لنشرها وإذاعتها، وابتكار ألوان أدبية جديدة تقوم على استثمار الوسائط التكنولوجية المتنوعة، والإفادة من الفنون التصويرية، والموسيقى، وأشكال الجرافيك، في المزج بين التشكيل المزجي، والبصري، واللغوي في النصوص الإبداعية الأدبية وإتاحة قدر كبير من التفاعلية، وهي لا تعني قدرة المتلقي/المستخدم على الإبحار في عالم الإنترنت الافتراضي وحسب، بل تعني قوته وقدرته على إحداث التغير فيه[8].

"وهكذا يغدو التوازي جلياً بين العالمين الداخلي والمرجعي عبر المكانين والزمانين الداخليين والمرجعين مما يشي بأن عملية القص ليست مجرد تحليق في الخيال عبر أحداث متصورة، إنها في جوهرها إشراف على الخيال قصد معانقة الواقع

عبر فهمه والوقوف على خصائصه منعكسة في مرآة الفنّ. وهكذا يكون في الإمكان أن نفترض أنّ وظيفة الأيام؟ في صلب الإبداع الروائي تتألف مع وظيفتها في صلب الواقع المرجعي!"[9].

تقول زهور كرام:" يشهد الزمن الراهن شكلا جديدا في التجلي، بسبب الثقافة التكنولوجية التي غيرت إيقاع التعاملات الفردية والجماعية، كما سمحت بفضل وسائطها الالكترونية والرقمية إلى جعل الكل متفتحا على بعضه، ضمن شروط الثقافة الموحدة رقميا"[10].

ويرى عمر زرفاوي أنّ " الأدب التفاعلي Interactive Littérature يمثل جنساً أدبياً جديداً تخلّق في رحم التقنية، قوامه التفاعل والترابط، يستثمر إمكانات التكنولوجيا الحديثة، ويشتغل على تقنية النص المترابط-Hypertexte، ويوظّف مختلف أشكال الوسائط المتعدّدة-Hypermédia يجمع بين الأدبية والإلكترونية"[11].

لم تؤازر تكنولوجيا المعلومات المبدع فقط، بل وقفت– وبشدة بجانب المتلقي أيضا؛ حيث وفرت له العديد من الوسائل التي تمكنه من التفاعل مع العمل الفني، وتنمية حاسة التذوق لديه، وتكثيف عملية شعوره بالمتعة[12].

إن منظّري النص المتفرع والأدب التفاعلي يرون، مثلهم مثل نقاد نظريات القراءة والتلقي، أن النص لا يكتمل فعليا، ولا يظهر إلى الوجود، إلا عندما يصل إلى المتلقين فيفهمه كل منهم بطريقته، ويؤول معناه بحسب ظروفه النفسية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها، ما من شأنه أن يؤثر في طريقة تلقي كل متلق للنص نفسه، وبالتالي فهمه وتأويله بشكل قد يختلف عن غيره"[13].

فخيارات المتلقي الرقمي أصبحت غير محدودة فهو سيد نفسه يدخل مواقع الانترنت ويختار ما شاء من النصوص ثم بإمكانه أن يقرأ النص الذي يريد من البداية

التي يريدها لأن النص الرقمي "يمنح القارئ خيارات في القراءة وحرية في تدبر طريقة تلقي النص، كما تجعله يحقق فعل الإبحار بالشكل الذي يختاره، بل يمكن لقارئ النص نفسه أن يحقق مع كل قراءة نصا مترابطا قد لا يشبه سابقه، وهنا يدخل فعل التفاعل بوصفه تقنية وظيفية في القراءة، ويشكل الرابط/lien تقنية أساسية في تنشيط النص المترابط وتحقيقه، وهذا الارتباط هو الذي ينتج المعنى"[14].

وهذا المعنى المُنتج، متعدّد بالضرورة، لأنه يصدر عن متلقين متعددين وهو حرّ لأنّ "المتلقي يملك مطلق الحرية في الإبداع حين يشارك فعلياً في كتابة النص من دون أن يكون مقيدا بالاختيار بين إمكانات متاحة "[15].

وبالجمع بين عناصر الكتابة الجديدة انتقل النص الروائي في زمن العولمة التقنية إلى مستوى مختلف من الإبداع الذي خبا فيه دور المبدع إلى درجة أدنى من موت المؤلف الذي دعا إليه رولان بارت، وارتقى فيه دور القارئ إلى مستوى أعلى من القارئ النموذجي الذي كشف عنه أمبيرتو إيكو، ولكنّ تأثير العولمة التقنية في الكتابة الروائية نفسها كان الأهم، لأنّه اخترق الرواية العربية المعاصرة عبر المضامين الالكترونية، ولكنّه تجاوزها إلى الشكل التقني مع الرواية الواقعية التفاعلية:

3- التحوّل الموضوعاتي في الرواية العربية المعاصرة: أنتج التحوّل الموضوعاتي في الرواية العربية المعاصرة في علاقتها بالتطور التكنولوجي ما يصطلح عليه نقديا بالرواية التقنية، وهذا الجنس الروائي ليس جديدا إلاّ في مضامينه التقنية، أما الشكل الروائي فهو نفسه الورقي الذي تعوّد القارئ عليه، أو هو ورقي منقول في شكل صور إلكترونية، أما خاصيته الأساسية فهي أنّه "اهتمَّ بتقديم موضوع الإنترنت وعلاقته بالشخصيات في صورة سرد تقريري تقليدي عن طريق الراوي العليم أو الذاتي، أي أنَّ الموضوع افتراضي والشخصيات افتراضية، لكنّ شكل الرّواية لا يختلف كثيرا عن الصورة التقليدية[16]، وقد مرّ هذا التحوّل بمجموعة أشكال هي:

- الهوية الرقمية في رواية في كل أسبوع يوم جمعة لإبراهيم عبد المجيد:

أعطت رواية المضامين التقنية هوية جديدة لكاتبها ولشخوصها ولقارئها على حدّ السواء، و"الهوية الرقمية هي مجموع الصفات والدلالات والرموز التي يوظفها الإنسان للتعريف بنفسه في الفضاء الافتراضي، في تفاعل ويتواصل على أساسها مع الآخرين، بحيث قد لا يتوافق مضمونها مع هويته الحقيقية في الواقع الاجتماعي"[17]، بل إنّ عدم التوافق هو هدف في حدّ ذاته في مثل هذه الروايات، لأنّها لم تُكتب لتصوّر واقعا، بل لتصنع واقعا متخيّلا، ليس داخل عالم الأحلام، بل داخل عالم يشبهه هو الواقع الافتراضي، والفرق بين العالمين أنّ الكاتب في الثاني يتحكّم في تخيّلاته، وفي هويته الجديدة فيها.

ومن المميّزات الإيجابية لهذه الهويّة الرقميّة أنّها سمحت لأطراف العملية الإبداعية بـ" انتقال نوعي من هوية مغلقة إلى هوية متحولة، ثم هوية هجينة، والروابط الاجتماعية التي جرى تعزيزها عبر الشبكة لا تخفي حقيقة التغيرات التي تعرفها الممارسات الهوياتية عبر الفضاء الافتراضي والتي تترجم مظاهر الاستبطان الهوياتي في فضاء ثقافي كوني يساهم بطريقة أو بأخرى في إعادة هيكلة الذات"[18]، فالكتّاب يعبّرون عن الهويات التي يريدون أن يكونوا عليها في الواقع، أو يتمنّون هويات متعدّدة بأوجهها المختلفة أو المتناقضة أحيانا لمواجهة تناقضات الحياة، أو فقط للهروب من واقع لا يريدون العيش فيه، لذلك نشأت المجتمعات الافتراضية التي تتكوّن من مجموعة من الأشخاص الذين تتفق أفكارهم على قضايا اجتماعية أو سياسية أو ثقافية، أو تتفق فيها جميعا، وهي البديل المعاصر للمجتمعات الوطنية لأنّها غير مقيّدة بالحدود الجغرافية، بل منفتحة انفتاح الفضاء السبراني، فلم يعد "التفاعل على أرض واحدة هو الباعث الأول للتجمع، بل أصبح يتم عبر التكنولوجيا ووسائط الاتصال والمعلومات"[19].

ورواية (في كل أسبوع يوم جمعة) لإبراهيم عبد المجيد، دارت حول هذا المضمون نفسه حيث صنعت مجموعة من الشخوص موقعا على الإنترنت للتفاعل فيما بينها، وقد اختاروا يوم الجمعة موعدا متكرّرا لتلاقيهم، لذلك جاء عنوان الرواية معبرا عن ذلك صراحة، وهو ما أبعده عن الشاعرية الأدبية وجعله أقرب إلى المباشرة والسطحية، ورغم ذلك فإنّ "العنوان يمثل هاجسا من نوع ما، فمنذ اللحظة الأولى للقراءة يطالعنا العنوان المنتقى من جانب المؤلف، ليثير فضول المتلقي فيأخذ في التعبير عن المحتوى بعيدا عن القراءة[20]، فما الهواجس التي يثيرها هذا العنوان؟ وما علاقتها بالمضمون الرقمي؟

الهاجس الأوّل هو يوم الجمعة، لقد تحوّل في العالم الافتراضي إلى يوم تخرج فيه شخوص الرواية من ذواتهم الواقعية ليلبسوا ذواتا رقمية فيختلف التعبير عنها من الواقعي إلى الافتراضي، لأنّه "غالباً ما تمثل الأشخاص الرقميون بما يرغبون أن يتمثلوا به، أي يتظاهرون بالأشياء التي يحبونها في الحديث وفي التعريف بأنفسهم وبآرائهم وأفكارهم وغير ذلك، وليس شرطاً أن يكونوا كما هم في واقع الأمر، ولكن الأمر المشترك في معظم المتمثلين افتراضياً، هو تمثّلهم بما يريدون من الآخرين أن يروهم"[21].

والهاجس الثاني هو البوح الحرّ، فقد مثّلت هذه الرواية " سردا تفاعليا جديدا بين طبقات وفئات متنوعة من المجتمع المصري، قد يجمعهم الواقع، لكنّه لن يجمعهم بوح حقيقي، وهو ما يشير إلى إضافة جديدة في نوعية العلاقات البشرية العصرية"[22].

وقد نتج عن تداخل الهاجسين تفاعل واكب" التطور التكنولوجي الخاص بالاتصالات وفعالياته المستخدمة في المجتمعات ليصنع سردية خاصة"[23]، قامت على تقنية معاصرة مرتبطة بالأنترنت التي مثّلت في الرواية واقعا موزيا مدخله الأساس هو (الشات) الذي سمح للشخوص التي تمثّل مختلف طوائف المجتمع من

الدخول في هويات رقمية سمحت لهم بالبوح الحرّ، و"لطبيعة البوح على الشات تسرد مأساة الشخصية دون رتوش، الحقائق والأحداث دون أن يسترها، غواية أن يقدّم الإنسان ذاته عاريا ودون أن يراه الآخرون"[24] في الوقت نفسه.

ويمثّل (عماد) الرمز الذي اختاره الكاتب لهذا التحوّل الهوياتي فهو في الواقع (منغولي)، أي أنّه مولود بتشوّه خلقي ونقص في القدرة العقلية التي تمنعه من التفكير السويّ، ابن ضابط عسكري كبير، كبر في عالم من الانضباط الزائد عن الحدّ، خاصة لشخص في مثل حالته، وهو إضافة إلى ذلك عاجز جنسيا، وغير قادر على أداء الوظائف التي يؤدّيها الإنسان السليم، وقد تحوّل إلى قاتل مهووس، لأنّه لا يكتفي بالقتل، بل يقوم بتشويه ضحاياه وتقطيعهم ورميهم في نهر النيل.

أما الشخصية الثانية التي تغيّرت هويتها من الواقعية إلى الرقمية فهي روضة زوجة عماد، وهي المؤسِّسَة الأولى للمجموعة الافتراضية في عالم الأنترنت، وقد كان غرضها في البداية التعارف-كحال الكثير من الشباب العربي-، ثمّ تحوّل العالم الافتراضي بالنسبة لها إلى مساحة للتنفيس الجنسي والتعبير عن الكبت الذي تعانيه بسبب عجز زوجها، لينتقل في النهاية إلى مكان لاقتناص الرجال الذين تستغلّهم جنسيا وتسلّمهم إلى زوجها ليشبع كلّ منهما شهوته، الجنس والقتل.

وتتعقّد أحداث هذه الرواية حين "تجد روضة نفسها، مع زوجها المنغولي هو سلوتها وأزمتها، شخص مريض، عاجز عن القيام بواجباته الزوجية، فليس أمام الزوجة الشابة إلا عالم الإنترنت، تتواصل به مع العالم لإشباع حاجاتها النفسية من حب ودفء، وحاجاته الجسدية الجنسية"[25]، أقنعت نفسها بداية أنها داخلة للتعلم وتجديد حياتها، ولكنها في الواقع، تدخل عالم الرجال وتسقط في علاقات جسدية محرمة، وتألف المسألة تدريجيا، وتتكرر الحالة[26]، وفي إحدى المرات يختلف العشيق

مع روضة وهما في منزلها، ويراه زوجها المنغولي فيقتله، وبمساعدة روضة، يقوم بتقطيعه وإلقائه بالنيل.

ونصادف من خلال الجروب، نماذج من شخصيات عديدة، ونرصد العديد من التحولات التي طرأت على المجتمع عبر النماذج الشخصية المقدمة في الرواية وسندرك عبر تقنية سرد (الشات)، حقائق عن ثماني عشرة شخصية، "لكلّ شخصية بصماتها الخاصة وملامحها الداخلية والخارجية شديدة التميّز، ولسانها الثقافي الذي يتلاءم مع معطياتها المجتمعية والنفسية"[27].

ومن الشخصيات التي نجدها في الموقع، ذلك المغامر الذي يتحرك في كل الفصول في البحر ليحصل على صيد وفير، وهناك أب فقد ولديه التوأم وهما يحاولان الهجرة غير الشرعية، ويريد سلوى لحزنه، وهذه فتاة امتهنت الدعارة، ثم صارت على قناعة أن الرجال لا يستحقون الحب، ومن ثم دخلت في علاقات سحاقية. وذلك السائق المتقاعد الذي يبحث عن أناس يشاركهم جلسات الأنس والشراب. وهذا شخص متدين يرى العالم من زاوية الحلال والحرام كما يفهم الدين هو، ومدمني المخدرات وانتشارهم في المجتمع.

وأما الصفات الرقمية فقد تنوّعت تنوّع انتماءاتها، فكلّ من (باسم البكري وتامر كونيكشن) مثّلا الطبقة البسيطة، أما (مختار كحيل) فمثّل المثقّف المتعالي، وأما الباحثات عن الحب فهن (لميس وروضة ونهى ومريم ولمياء المشتاقة)، وقد انفصلت عنهن (رنا سليمان) لتدخل العلاقات غير الشرعيّة، ليظهر التصوّر القاصر للدين مع (أحمد بن علي).

تتطور الأحداث حيث تسقط روضة الصياد البحري، لينعم بليلة جنس مجنونة معها، ثم يصبح بين أيدي زوجها المنغولي، الذي يتلذذ وهو يقطعه، ويرميه في النيل.

وتحاول سيدة صحفية مساعدة الأب الفاقد لولديه ولكنه يكون قد يأس هو زوجته من الحياة فيقرران الانتحار معا. تتحرك الصحفية أكثر، فتتواصل مع السحاقية، لتعيشا أياما جميلة، وقد قررتا ألا يفترقا، فكلتاهما كارهتان للرجل.

وقد تناوب على سرد هذه الأحداث راوٍ عليم، ثم الشخصيات المعنية نفسها، أما السرد الأوّل فكان مباشرا عرّف فيه المبدع القارئ بكلّ شخصية على حده، وقد أفادنا الشكل الثاني من السرد في الدخول إلى الأعماق النفسية لكل شخصية، وإذا كان السرد الأول قد استعان بتقنية الوصف اللغوية، فإنّ السرد الثاني استعان بتقنية (الشات) للاستماع إلى الشخوص وهي تبوح بأسرارها دون قيد من المؤلّف أو من راويه الأساسي.

والرواية تقول في النهاية أنّ التشوّه الذي ظهر في أعماق هذه الشخصيات طبيعي جدا، وأنّ السواد الذي يغطي شخصياتهم الالكترونية هو مظهر صحّي، لأنّ الحياة الحقيقية مليئة بصور القبح، يقول الراوي على لسان الشخصية المفكرة في الرواية(مختار كحيل)"كيف حقّا يقولون عن الفنانين بأنّهم مجانين، بينما هم العقلاء الذين رأوا الدنيا كيفما يجب أن تكون، لا تخلو من التشوّه الذي هو أساس الجمال في كلّ الأشياء"[28]، وكأنّ الكاتب يبرر صور القتل التي ستستمر حتى بعد انتهاء الرواية، فالجروب مستمر، يستقطب ضحايا جددا، وتتوالى الجثث المهترئة في النيل، وكلها ضد مجهول، في إشارة إلى أن الجريمة مستمرة، لا أحد ينتبه، ولا سلطة تتحرك، ولا أناس يرتدعون، ولا قيم تبقى.

- **الحب الالكتروني في صمت الملائكة ابتسام ياسين غزة فلسطين:** عرفنا أنّ الحب في زمن العولمة تأثّر بمظهرها المادي فضاع بين تلك المشاعر البراغماتية المعاصرة التي لا تعترف إلاّ بالمصلحة الشخصية، فلم تعد تلك العلاقة الإنسانية

السامية تستهوي كتّاب الرواية إلاّ في القليل النادر، خاصة في هذا الزمن الذي تسيطر عليه مشاعر الديستوبيا والخوف من المستقبل.

كما عرفنا أنّ العالم الافتراضي أصبح بديلا عن الواقع المعيش، وأنّ الشخصيات الحقيقية تفضّل الظهور بصورتها الالكترونية التي تحقّق من خلالها كينونتها المغايرة التي تتمنّاها، في انفصال يشبه انفصام الشخصية (سكيزوفينيا) عند علماء النفس، ولكنّ الفرق بينهما أنّ هذا الفصام واعٍ من قِبَلِ تلك الشخوص التي تدرك تحوّلها من صورتها الأولى إلى صورها الالكترونية المتعددة، بل إنّها تتحكّم في أشكال ذلك الظهور.

غير أنّ رواية صمت الملائكة للفلسطينية ابتسام ياسين قد شذّت عن هذه الأحكام، فهي أولا تصوّر مشاعر الحب الطاهرة التي يبدو أنّها لم تَخْبُ بعدُ من واقعنا العربي المعاصر، وأنّ نفوسا طاهرة مازالت تتوق إلى تلك المشاعر الإنسانية الجميلة التي ميّزت واقعنا وأدبنا العربيين منذ القدم، وهي ثانيا تصوير للحضور المختلف في الواقع الافتراضي دون أن يشوبه ذلك الفصام الذي يفصل الشخصية عن واقعها، ويجعلها تعيش خيالات مستحيلة.

فصمت الملائكة هو عنوان لاسم بديل (Nick Name) لإحدى الشخصيات الرئيسة في الرواية، اختاره البطل أيهم مهندس الإلكترونيات في قطاع غزة ليكون قناعه في العالم الالكتروني ويبدو أنّ الواقع الفلسطيني والغزاوي بشكل خاص فرضا مثل هذا التخفّي حتّى في الواقع الالكتروني.

غير أنّ عقدة هذه الرواية والتي تتجاوز العلاقة بين هذين الحبيبين، وتتجاوز الواقع الافتراضي لتعود بنا في كلّ مرّة إلى الواقع الحقيقي القاسي الذي يعيشه كلّ الفلسطينيين، هو إصابة هذا الشاب بقذيفة إسرائيلية في إحدى هجماتها الغاشمة على

القطاع، ليمسي الشاب عاجزا لا يستطيع الحركة والتواصل مع الآخرين إلاّ عبر هذا الواقع الافتراضي.

لقد جعلت الكاتبة من الواقع الافتراضي منطلقا لحكايتها التي تدور حولها كلّ البنى السردية للرواية، فقد نشأت علاقة الحب بين الطرفين في بداياتها داخل وسائط التواصل الاجتماعي، وقد خصّصت لها الكتابة حيزا واسعا في الرواية أسّست فيه لهذا الشعور الذي نما طبيعيا وتمكّن من قلبي الشابين ليزهر مشاعر عاطفية غاية في البراءة والجمال.

أما لقاءهما الالكتروني الأوّل فكان صدفة، أم هي يد القدر ساقتهما إلى هذا التلاقي غير المتوقّع، ويعود إلى ذلك اليوم الذي" كانت تعبث في هاتفها المحمول في انتظار مكالمة رولا، حينما وصلتها رسالة هاتفية منها تخبرها أن تدخل موقعا لمحادثتها كتابيا ... وأنّها ستقابلها هناك بلقب مستعار صمت الملائكة"[29].

عثرت على صديقتها في العالم الافتراضي، ولكنها كانت مختلفة عن الوجه الذي تعرفه بها في عالم الناس، لقد انفتحت أفكارها واتّسع أفقها وغدت شخصا آخر في هذا العالم الأزرق، فقد جاءها منها سؤال عميق لم تتوقّعه من صديقتها السطحية: " ترى من يدوم أكثر، الصداقة أم الحب؟"[30].

كالحكايا الخيالية، وقعت أرينا بين يدي عاشقها دون أن تدري، فقد اكتشفت بعد حوار عميق أنّها أخطأت الشخص، فقد وصلتها رسالة أخرى من اسم مستعار آخر (صمت الملاك)، ليتحوّل الجمع إلى مفرد والانبساط في الحديث إلى حيرة وذهول، حاولت أن تتجاهل هذا الغريب، لكنّه أيقظ في نفسها الكثير من الأسئلة فطفقت " نظراتها رغما عنها منجذبه إليه، تتفقّد وجوده كأنّها تخاف فقدانه"[31].

لقد فرضت هذه الشخصية ذاتها الافتراضية على البطلة بانفتاحها وعمق فكرها، وجمال لغتها وانبساطها في الحديث، فهل هي شخصية حقيقية أم إنّها تتصنّع هذه الذات الراقية التي لا يوجد مثلها في الواقع المعاصر إلاّ نادرا. إنّ هذه التساؤلات كانت سببا في تشتيت انتباه البطلة التي لم يخرجها من شرودها غير " ضوء مشع ينبئ بوصول رسالة جديدة من صمت الملائكة فتحتها وعيناها لا تكاد تصدّق ما تراه، كانت كلماته آمرة لا تقبل الرفض: لقد صنعت صفحة جديدة في الفاسبوك باسم صمت الملائكة دعينا نتلاقى هناك يا صديقتي"[32].

صوّرت الرواية تلك الجاذبية الغريبة التي تفرضها وسائط التواصل الاجتماعي على مرتاديها وعلى العلاقات التي تجمع بينهم، فقد " تاهت في عالمها وهي تتفادى التفكير به لكن بلا جدوى، فقد انجذبت أفكارها إليه كأنّه بؤرة الجاذبية بعالمها، ما باله لم يحادثها وتركها تعاني هشاشة الحنين، فتكدّست أشواقها بأزقة الانتظار"[33].

ولكنّ هذه الجاذبية الخيالية لا يمكن أن تنفصل عن الواقع، وهو ما عبّرت عنه الرواية مرارا، فقد كان البطل يخاف أن تزول لتحلّ محلّها الحقيقة بوجهها المتجهّم، حيث قالت الأم لابنها " لو كانت فتاتك تطارد الخيال الذي نسجته كشرنقة حولك لتجعلك مضيئا بقوس قزح، وتراءى لها أن ترتبط بمحبّتك بناء على استنتاجاتها الوردية ولن تقبل بواقعك، أتركها وشأنها ولا تحزن على إثرها، فمن خسر واقعه لن ينال حلمه"[34].

بين الخيال الافتراضي والواقع ولدت علاقة الحب الالكتروني بين طرفين زرعا بذرتها في العالم الأزرق وحصدا أشواكها في الواقع الرمادي، حينما انكشفت ملامح وجه أيهم قليلا قليلا أمام أرينا وأمام القارئ، " يا الله أنت مشلول! وكأنّما دلق عليها دلو ماء بارد بقوله: نعم لو كان قصدك كسيح"[35].

ومن لفظتي (مشلول وكسيح) تظهر تأثيرات الواقع على سلطة الخيال الالكتروني في صورتين اثنتين، إحداهما جميلة جمال ارتباط رجل وامرأة برباط الحب المقدّس، من خلال مشهد الخطبة الذي حضّره أيهم لأرينا والذي كان إلكترونيا بامتياز حيث استعان فيه بالألوان والحركة والأصوات لتنتهي جميعا بخطبته لها، وثانيهما صورة رفض أدهم القاطع لخطبة والدة أيهم لأخته أرينا في مشهد أعاد البطلة من تأثيرات الصورة الأولى الجميلة إلى واقع الصورة الثانية بتأثيراتها النفسية الأليمة.

رُفض طلب أيهم لأنّ الواقع غلب الخيال، ولأنّ الخوف من الغد المجهول كان أسبق من واقع وردي رسمه البطلان على صفحات وسائط التواصل الاجتماعي، انتهت القصة ولكن ليس كما بدأت، فقد امتلأ أيهم وأرينا حزنا في واقع الناس وقد ملأهما قبل ذلك العالم الافتراضي فرحا وسرورا.

وقد جاءت الخاتمة السردية في شكل رسالتين إلكترونيتين بين بطلي الرواية، عنونت الأولى (إلى حاضري الغائب)[36]، ووسمت الثانية (إليكِ يا منارة قلبي)[37]، كانت الأولى منها إليه، والثانية منه إليها، وقد عبرا في الرسالتين عن رغبتهما في البقاء في العالم الافتراضي لأنّ ما يهبه إيّاهما من سعادة لم يجداها في الواقع الذي قتل حبّهما في مهده ليتركهما مقيدين في عالم الحب الالكتروني.

وفي النهاية رسالة موجهة إلى كلّ قارئ طاف بين العالمين المتناقضين، عالم الواقع وآلامه وعالم الأنترنت وأحلامه، وقد جاءت في ثلاثة أسطر قصيرة تتوسط الصفحة وتختم الرواية:

يا سادة ما أقسى أن تبقى أرواحنا مهمشة
بانتظار رسائل مكتوبة عالقة في طيّات بريد القلب
فلا ترسلها ولا تستقبلها ونبقى أسرى الانتظار[38]

لقد فتحت الأنترنت أمام هذين العاشقين أبواب الحب دون أيّ قيد، ولكن أبواب المجتمع بأحكامه الجائرة أغلقتها، وغياب ياء النسبة في المنادى (سادة بدل سادتي) هو دليل غضب هذين الشابين الحرومين من الحياة الكريمة في غزة بفلسطين كباقي البشر بسبب الاحتلال الإسرائيلي الغاشم، ومحرومين من عاطفة الحب الجميلة كباقي العاشقين في العالم بسبب قوانين الواقع التي تؤمن بالفيزيولوجيا أكثر مما تؤمن بالعاطفة، وتضيع فرص الحياة السعيدة في الخوف من الموت بدل التمتّع بالحياة.

- **الحرّية الالكترونيّة في رواية حرية دوت كوم لأشرف نصر، مصر:** الشعور بالحرية هو أهم مظهر من مظاهر العولمة التي أعادت للفرد الإحساس بأنّه مميّز، وأنّ له دورا مهما في المجتمع بعدّه لبنة من لبنات بنائه التي لا يمكن الاستغناء عنها، لأنّ جدار الحياة لا يعلو ويشتدّ إلاّ إذا شُدّت هذه اللبنات بعضها إلى بعض، وقد تنوّعت أشكال هذه الحرّية بين الواقعية والافتراضية، أما الأولى فساحتها الواقع الذي ترتبط فيه الذات بأفراد المجتمع أو الوطن أو حتى العالم أجمع، وكثيرا ما تجد صعوبة في تحقيق كينونة خاصة بها في خضمّ الصراعات التي تنشأ بينها وبين الذوات الأخرى، وأما الثانية فحرية خيالية تلجأ إليها الذات حينما لا تستطيع تحقيق كينونتها الواقعية، حيث تجد في العالم الافتراضي وشخوصه الغامضة مساحة لممارسة الحرية سواء بشخصيتها الحقيقية أو بأي صورة تريد الظهور عليها، دون أن يكون لذلك في الغالب نتائج على الذات الحقيقية، إلاّ الشعور بالرضى.

وقد وُسِم هذا العالم بأنّه واقع افتراضي، ليس لأنّ أحداثه تحصل بالفعل، ولكنّه سمي كذلك لأنّ البشر أرادوا له أن يكون بديلا عن الواقع الحقيقي، لذلك فهو لا يحصل إلاّ في عالم الأنترنت الذي يمثّل أحد أهمّ أوجه العولمة المعاصرة وهو الوجه التكنولوجي.

والحريّة التي يمنحها هذا العالم قد لا تكون حقيقية في مظهرها الخارجي، ولكنّها في تأثيرها النفسي قادرة على التغيير الإيجابي للفرد لما تمنحه إيّاه من قدرة على تخطّي كلّ الحدود التي لا يستطيع تجاوزها في عالم الناس، سواء أكانت أوامر إلهية أو قوانين وضعية، أو حتى عادات وتقاليد موروثة.

وقد وجدت الرواية العربية المعاصرة في موضوع الأنترنت أداة للتعبير عن هذا البحث الدائب عن الحرّية من خلال المنتديات الإلكترونية التي تحوّل الأفكار الإيجابية إلى قضايا للنقاش المفتوح الذي يعبّر فيه كلّ شخص عن وجهة نظره، كما يمكن أن تكون ساحة للأفكار السلبية التي يمكن أن تنتقل من الواقع الافتراضي إلى الواقع الحقيقي.

وهو ما حصل في هذا المنتدى الموسوم بـ(حرّية دوت كوم) وهو عنوان الرواية التي كتبها أشرف نصر، وفيها تتناوب مجموعة من الشخوص/ المشتركين على التعبير عن ذواتهم في هذا المنتدى الذي جاء في تقديمه أنّه "يفتح لكم آفاق الحرية الحقيقية، اكتب ما تشاء وشارك فى أقسامنا الرئيسية، وابتكر أقساما فرعية فى أي موضوع يشغلك، مبدؤنا: حطّم قيودك وامتلك حرّيتك"[39].

فهذه الشخوص لم تأت هذا العالم إلاّ بحثا عن هوية أخرى غير التي يظهرون عليها في الواقع، هوية يستطيعون من خلالها أن يلجوا عوالم لم يفكروا في دخولها في واقعهم، وأن يتحدّثوا بأفكار عجزت ألسنتهم عن البوح بها خارج هذه المنتديات، لا لأنّها تمنحهم الشجاعة على البوح بها فحسب، بل لأنّها تمنحهم أقنعة تمكّنهم من إخفاء أوجههم الحقيقية التي يمجّها العالم الحقيقي، فكل شخصية تقدّم نفسها في المنتدى باسم مختلف فهذه "ليلى" التي تقدم نفسها باسم "مروة" و"مجيد" باسم "مهاجر" و"سهيل" خليل السوهاجي، وغيرهم، كلّ منهم يخفي وجهه وراء شخصية أخرى أراد

أن يكونها في واقعه، فلمّا عجز عن ذلك تلبّسته في العالم الافتراضي، كأنّها روح من عالم موازٍ وجدت في تلك الأجساد الخاوية سبيلا لحياة ثانية.

والذي يلفت الانتباه أن هذه الشخوص/ المشتركين تعدّدت جنسيات أوطانها، وتنوّعت مشاربهم الثقافية والعلمية، وحتى حالاتهم النفسية، فهم ينحدرون من بلدان عربية كثيرة منها مصر ولبنان والعراق والخليج العربي، ومنهم سيدة البيت والمهاجر في بلاد الغرب، ومنهم الذي يعاني أزمات نفسية بسبب مشاكل أهله العائلية، والذي يعانيها بسبب أزمات أوطانهم.

لقد أعطى المنتدى الإلكتروني لهؤلاء جميعا هوية جديدة، فإذا كانت "الهوية من حيث كونها أمرا موضوعيا وذاتيا معا، هي وعي الإنسان وإحساسه بانتمائه إلى مجتمع أو أمة أو جماعة أو طبقة في إطار الانتماء الإنساني العام"[40]، فإنّها في عالم الأنترنت هوية افتراضية.

إنّهم صور عن شخوص العالم الحقيقي، ولكنّنا لا نرى منهم إلاّ ما شاءت الأسطر القليلة التي تدوّن على صفحات هذه المدوّنة أن تُظهره، لأنّهم شخوص افتراضية خفيّة لا تعترف بالمواطنة بمعانيها الاجتماعية والسياسية، بل بالمواطنة التقنية التي لا يستحقّها إلاّ من وافق على شروط الانضمام.

وقد اختار الكاتب أن يكون عنوان روايته خليطا من العربية والانجليزية، لأنّ الأولى هي لغة المشتركين والمتصفّحين والثانية هي لغة هذا العالم الافتراضي الأساس التي لا يمكن ولوجه إلاّ بها، وأما التداخل الدلالي فكان بي كلمة (حرّية) التي تمثّل الهدف الذي يرجو هؤلاء وأولئك تحقيقه، وهي أيضا اسم الموقع، أما (دوت كوم) فهي تعريب للاحقة الانجليزية (.com) التي تضاف إلى أغلب المواقع الالكترونية وتعني بالعربية (نقطة، تواصل)، وهي التي تسمح للمتصفّح بدخول العالم

الافتراضي وتحقيق التواصل مع الآخرين، فالعنوان في العولمة التقنية لم يعد " مجرد اسم يدل على العمل الأدبي يحدد هويته، ويكرس انتماءه لأدب ما، لقد صار أبعد من ذلك بكثير، وأضحت علاقته بالنص بالغة التعقيد. إنه مدخل إلى عمارة النص، وإضاءة بارعة وغامضة لإبهامه وممراته المتشابكة لقد أخذ العنوان يتمرّد على إهماله فترات طويلة، وينهض ثانية من رماده الذي حجبه عن فاعليته، وأقصاه إلى ليل من النسيان"[41]، ومن مظاهر هذا التمرّد هذا العنوان الذي لا يمكن تجاوزه للدخول إلى النص، لأنّه مفتاحه الدلالي كبقية العنوان ولكنّه المفتاح الالكتروني لدخول هذا الموقع/ العالم الذي تجري فيه أحداثها.

وأوّل الداخلين إلى هذا الموقع/ العالم شريف المصري، وهو الشخصية الأولى التي يتعرّف عليها قارئ الرواية، وقد كان أوّل الباحثين عن الحرية في عالم من القلق النفسي المتواصل لأنّ هذا الشاب الذى " يستيقظ على خلافات بين والديه حول الفلوس والمصاريف يبدو في حالة لا مبالاة لما يدور حوله وبدأ في التذكر عندما جلس أمام الكومبيوتر وبدأ بالدخول في عالمه[42]، الذي لا وجود فيه لهذا الضجيج الذي يصمّ الآذان، ولا لهذه الحدود التي وضعها الوالدان بينهم فلم يعد هناك سبيل لتحقيق أي نوع من التواصل، وهو ما دفع بالابن إلى بناء عالم خاص به في العالم الافتراضي، تحوّلت فيه شخصيته السلبية إلى شخصية عنيفة، وهو نوع من الكبت المعاصر الذي لا يستطيع الشاب العربي تنفيسه إلاّ عبر تلك المنتديات.

ومن الشخصيات التي دخلت المنتدى بريئة لا غرض لها إلاّ حماية ابنها من مخاطر الأنترنت السلبية الكثيرة السيدة رغد، وهي امرأة مطلقة وابنها من المتردّدين على هذا العالم الغامض، لذلك تشترك في هذا المنتدى مدفوعة بالخوف على ابنها ومحاولة فهم ما يدور في أذهان هؤلاء الشباب، فتتحوّل إلى مشاركة نشطة وتبدأ في المشاركة بأفكار مختلفة تبعد بها الشباب عن الأفلام الجنسية التي يرغبون فيها على

المنتدى ولكنها تتسلل في غياب ابنها لتفتح هذه الأقلام لتتنفس عن نفسها ورغباتها التي دفنتها تحت رداء من إيثار الابن والاكتفاء بتربيته ورفض الارتباط بآخرين من أجله[43]، وهو ما يبرز خطورة هذه المنتديات التي يمكن أن تطغى سلبياتها على إيجابياتها، فقد تحوّلت الأم من حماية حرّية ابنها إلى البحث عن حرّيتها الجنسية.

ويمكن أن تكون هذه المنتديات مواقع للتّعارف الجاد الذي يمكن أن تنشأ عنه علاقات حب حقيقية وليست زائفة كالتي وقعت بين سهيل اللبناني ومريم الفلسطينية، فرغم اختلافهما في الآراء إلاّ أنّ كلّ واحد منهما احترم الآخر، ليتطوّر الاحترام المتبادل إلى حبّ جارف، فقد كانت مريم مناضلة شرسة ضدّ الاحتلال الصهيوني، وهي تؤمن أنّ الحق يؤخذ ولا يعطى، فهي " تتبنى مبادئ تحرير الأرض وترفض مبدأ التعايش[44]، أما سهيل اللبناني فقد كان يرى أن مبدأ النضال لا طائل منه في هذا الواقع العربي، لذلك كان يكتب لمريم أنّ " بلدكِ لن يعود أبداً يا مريم، كل العرب ليس لهم مستقبل سنصبح كالهنود الحمر تسخر منهم كل الشعوب والأمم"[45]، وبسبب الحب إنصاع سهيل لموقف مريم، وأصبح كلاهما باحثا عن حرية فلسطين.

أما الشاب العراقي مجيد فقد اختار أن يبحث عن حرّيته في الهجرة إلى هولندا تاركاً خلفه وطنه العراق يحترق وحبيبته ندى وحيدة، ليتزوج من روز الهولندية خمسينية العمر، دافناً رأسه في الحشيش و ليذهب العرب إلى الجحيم وليأخذوا معهم الهولنديين وروز وليعطوننى الحشيش[46]، وقد اختار التعبير عن ذلك عبر منتدى الحرية دوت كوم، لأنّ ما كان ينقصه في هذه الحياة الجديدة المترفة هو الحرّية، التي كان يشعر بها في بلده، لذلك يعبّر شعوره بالقيد في قوله "الآن لا أسمح ولا أمنع كل ما لدى هو الطاعة .. طاعة العبيد وأنا الذي كنت سيد الأعظمية، وكنت أحلم بأن أكون سيد بغداد كلها"[47]، فالحرّية في زمن المنتديات هي بكاء على ما فقدناه ولو كان

قيدا، ولعن ما اكتسبناه بعيدا عن الأهل والأوطان، لذلك اختار مجيد المخدرات ليستطيع العيش في هولندا حيث الحرية/القيد.

وبين هؤلاء الباحثين عن الحرّية تظهر شخصية ملك الخليج الذي لا يهمّه في هذا المنتدى إلاّ مدّ شباب العالم الافتراضي بالأفلام الجنسية ليزيد من التفاف جمهور الموقع حوله[48]، وكأنّه يعتقد أنّ ما ينفص الشباب العربي اليوم هي الحرية الجنسية أكثر من أيّ شيء آخر، لذلك يهب نفسه لتحقيقها لهم، ولكنّه في الحقيقة يساهم في اتّساع الهوة بين هؤلاء وبين أهاليهم وأوطانها وقضاياهم المصيرية.

لقد كانت تلك الشخوص أمثلة عن الشباب العربي الباحث عن حرّيته في زمن العولمة، بسبب القيود الكثيرة التي تفرضها مجتمعاتهم وما تعانيه من أزمات على كلّ الأصعدة الأخلاقية والعلمية والثقافية، هؤلاء الذين وجدوا في مثل هذه المنتديات متنفّسا للتعبير عن مشاعرهم ورغباتهم وآمالهم التي يمكن أن تجتمع كلّها في كلمة (الحرّية).

أما عن الكتابة الإبداعية في مثل هذه الروايات التي تتّخذ من المضامين التقنية موضوعا لها، فقد كانت بعيدة عن أنماط الكتابة المعهودة، حيث استعانت الرواية، إضافة إلى العنوان الذي يشبه عنوان موقع إلكتروني، بالتقنيات المستخدمة في وسائط التواصل الاجتماعي كتضمين بعض الصور والأشكال والرموز التي استقدمها الكاتب من عالم الأنترنت الواسع، بل واستخدم صفحات كاملة من الشبكة، تتضمن محتويات أحد المواقع بأشكالها وألوانها، كما استعان بنمط الجمل القصيرة في كلّ سطر دفعا للملل عن القارئ المعاصر المتعجّل الذي لم تعد تستهويه النصوص الطويلة والمملة.

كما اعتمد الكاتب على تقنية الروابط أو اللينك/link to page46/للإحالة إلى أفكار ذكرها سابقا في النص لتكون صفحات الرواية أشبه بصفحات الشات، فلا يملّها

القارئ، ويتقبّلها كما يتقبّل محاوراته على الأنترنت التي أصبحت من يومياته التي لا غنى له عنها.

- الأنترنت العميق في رواية أرض السافلين لأحمد خالد مصطفى، مصر:

رواية أرض السافلين في اعتقادي هي أهم رواية عربية معاصرة خاضت موضوع الأنترنت تيمةً أساسية في مضمونها الروائي، لتكون الأنترنت هي البطل والمكان والزمان، بفضلها تتطوّر الأحداث، وفي كنفها تحيا الشخوص فلا تموت أفكارها ولا تبلى، بين جنباتها يتنافس الخير والشرّ، وعبر أبوابها ونوافذها يلتقي الماضي بالحاضر، تكفي نقرة صغيرة للدّخول إلى هذا الكون الواسع، وكلمات قليلة لاختيار مجال البحث فيه.

عالم اقتحم وجودنا، حتى غدا ضرورة من ضرورات الحياة التي لا غنى لنا عنها، وحين ألفناه اعتقدنا أنّنا نعرفه كما يعرفنا لأننا نجد أنفسنا فيه، أعمالنا وكتاباتنا وحياتنا بتفاصيلها في مواقعه المختلفة، ولكنّ أحمد خالد مصطفى يكشف لنا في هذه الرواية أنّ ما نعرفه هو غيظ من فيض، فوراء هذا العالم الظاهر عوالم خفيّة، أنترنت عميق[49] أسماه الكاتب (أرض السافلين).

وللولوج إلى هذا العالم لا بدّ أن يتحوّل المتصفّح إلى روح حرّة، لذلك يدعو الكاتب قرّاءه في الفاتحة النصيّة بقوله:" تحرر من كل شيء انزع عن روحك لباس كل شيء، تحلل من كل شيء يثقل هذه الروح. ألق همومك في هذه القمامة بجانبك، أريدك فقط روحا صافية حرّة متّقدة "[50].

فهذا العالم الغامض لا يمكن دخوله بتلك الذات الحقيقية التي يعرفنا العالم بها، بل يحتاج إلى ذات أخرى بشخصية مغايرة لا تقيّدها القوانين والقواعد التي تحكم عالم الناس، ذات متحرّرة من الشعور بالذنب ومن الإحساس بالألم، تنظر في عالم

الأنترنت العميق أبعد من أفق العين، إلى آفاق الكون المفتوحة، التي اختزلها هذا العالم العميق ليتحوّل إلى أرض السافلين.

ومن يدخل هذا المكان ويرى ببصيرته عوالمه العجيبة لا يخرج منه كما دخله " أنا أريد هذه الروح، أريد أن أحدّثها، ليس حديثا أكون فيه أنا المتحدّث وأنت المستمع، بل حديث آخذ بيدك فيه وندخل معا في عالم لست أظنّك ستخرج منه كما دخلته"[51]، لأنّ من يخرج منه لن ينظر إلى عالم الحقيقة بالنظرة نفسها بعد ذلك، " فإمّا أن تخرج منه حاملا كتابي هذا وملقيا به في أقرب محرقة حانقا علي وعلى كل من يأتيني من بعدك.. أو ستخرج من عالمي وأنت تنظر إلى عالمك هذا بنظرة مختلفة[52].

وقد سمّاها الكاتب بأرض السافلين لأنّها أرض المسموح التي لا يمنع فيها شيء لا قانونا ولا عرفا ولا دينا "أرضٌ السفلة خزنتها.. والسفلة سكانها.. والسفلة ورثتها.. أرض موجودة أسفل قدميك.. يمكنك أن تخطو إليها بحركة واحدة..أرض سافلة.. فيها كل شيء مسموح به..كل شيء شرعي..القتل مسموح به والاغتصاب..السرقة مسموح بها والمخدرات..الدعارة مسموح بها والجنس مع أي سن مسموح به ولو كان مع طفل..أو حيوان.. الخطف مسموح به والتعذيب.. أكل لحم البشر مسموح به وسلخهم أحياء مسموح به.. الكذب مسموح به والإرهاب.. ليس هذا عالما افتراضيا تجود عليك به قريحتي المريضة.. بل هو عالم حقيقي وموجود.. وسيظل موجودا..[53]، فهو كالجانب المظلم من عالمنا، وكلاهما يمثّلان وجهي الوجود الواقعي والافتراضي، إلاّ أنّ الأوّل معلوم والثاني يجهله أغلب الناس "إنهم يطلقون كنية على هذا العالم السافل.. كنية تغلفها البساطة.. لكن وراءها عالما لن تدركه.. إلا لو وضعت يدك في يدي ودخلناه معا.. يطلقون عليه اسم "ديب ويب".. يسمونه شبكة الإنترنت السفلية.. هناك إنترنت أنت تعلمه ولا تمضي ساعة من عمرك إلا وأنت تنظر إليه..وهناك

إنترنت سفلي سافل ممنوع.. وهذا الذي ربما أنت لا تدري أصلا أنه موجود.. هي شبكة تجري فيها كل الأعمال السافلة في عالمنا هذا"[54].

ومفتاح الدخول إلى هذا العالم بسيط بساطة التكنولوجيا التي يتقنها الأمّي والعالم في هذا الزمن" وأنت تملك مفتاح الدخول إليه في جيبك.. أو ربما على مكتبك.. ولا أحد يقول لك أن هذا المفتاح يمكن أن تفتح به هذا العالم السافل.. وتدخل عبره إلى هذا العالم السافل.. فتصير سافلا مع السافلين.. أو تصير أكثر رشدا"[55]، ولهذا العالم السافل عملة سافلة خاصة به.. عملة إلكترونية غير قابلة للتعقب ولو بأكثر الطرق حداثة.. يسمونها "البيتكوين" Bitcoin..تشتري بها المخدرات.. وتشتري بها العاهرات.. وتؤجر بها القتلة.. وتفعل بها أي شيء مشين.. وتظل غير قابل للتعقب من دولتك أبدا مهما فعلوا[56].

أما عن طريقة الدخول إلى هذا العالم وكشف أسراره فلا تكون إلاّ بالتحوّل إلى روح حرّة فأنت "في صورتك الإلكترونية حين تدخل إلى الشبكة السفلية تكون كثعبان حر لا يستطيع أن يمسك بك أحد.. فأنت حين تتحلّل من صورتك المادية وتصير روحا حرة.. تصير كالزئبق لا يقدر على الإمساك بك أحد.وحين ندخل أنا وأنت من هذا الباب، سندخل في طور الروح.. وكل شيء كان مستورا سينكشف[57].

وإذا كان هذا التقديم الذي بدأ به الكاتب روايته يجعل هذا العالم يبدو عجيبا، فإنّ الانتقال إليه كان أغرب، وأشكال الحياة فيه أعجب وأغرب، فـ" فور أن انفرجت دفتا الباب.. سَحَبَنا ذلك العالم إليه فجأة.. كما يسحبك باب الطائرة لو فتحته فجأة.. فوجدنا أنفسنا أنا وأنت نهبط من السماء.. إلى أرض هي أعجب أرض.. وجبال هي أعجب جبال.. تعلونا طيور سابحات.. وننظر بأعيننا إلى مشهد غني جدا.. مدينة عظيمة أسطورية.. كل جزء منها يختلف عن الآخر في تضاريسه وطراز سكانه.. فجزء تغطيه نيران الحروب وجزء يغشاه الظلم وتسكنه الشياطين.. جزء مبهج جميل..

وجزء مقبض حزين. أشخاص يضحكون هنا وأشخاص يموتون هناك.. أناس يتقاتلون هنا وأناس يتناقشون بهدوء هناك.. أناس تحملهم بيضة زجاجية إلى السماء ينظرون منها في تعجب.. وأناس تحملهم سفينة عظيمة من بر إلى بر.. أناس يسجدون لأناس وأناس يرقصون لأناس.. أطفال يقفون صفا ويشيرون لنا في بؤس ونساء مائلات مميلات يرفعن إلينا أيديهن في شوق.. أناس يمشون مقيدين بالسلاسل وأناس يسكرون ويضربون زجاجات الخمور بعضها في بعض.. إن لم تكن هذه أرض السافلين.. فكيف ستكون؟"[58].

وللتأكيد على ارتباط هذه الرواية بالتقنيات المعاصرة فقد توسّع المعجم الروائي إلى كلمات تقنية عديدة منها الكرولر وسكوربيون أوّلهما وسيلة الانتقال بين العوالم السفلية، وثانيهما الحادي الذي يسوق المتصفّحين عبر سبلها "هل ترى تلك العربة هناك في طرف القاعة؟ تلك التي تشبه الدودة.. نعم ها هي ذي. عندما نختار أي عالم من العوالم نشاء ستأخذنا هذه العربة إليه مباشرة.. يسمونها هنا "الكرولر".. أو الزاحفة.. وسأترك سكوربيون يخبرك في وسط ثرثرته معك عن السبب الذي سموها به هذا الاسم. سكوربيون هو الشخص الذي سيعلمك كيف تدخل إلى شبكة الإنترنت السفلى.. وليس أنا.. أنا فقط مهمتي أن أرافقك لأؤنس وحدتك في كل عالم من عوالم السافلين[59].

وقد اختار الكاتب لهذا العالم نوافذ منها ينفذ المتصفّح إلى العالم الذي يشاء، "انظر إلى النوافذ من حولك.. تلك التي تحدنا من كل مكان.. يمكنك أن تعد سبع نوافذ حولنا.. تطل كل نافذة منهن على عالم من عوالم السافلين.. العوالم هنا كبيرة وغنية وسافلة جدا.. سننظر في النوافذ كلها ونرى ملمح جميع العوالم.. ثم ستكون لنا الحرية في اختيار العالم الذي نريد أن نذهب إليه قبل الآخر."[60]، والرقم سبعة له دلالة في التراثين الديني والشعبي لارتباطه بالجنة وأبوابها السبعة التي يدخل منها

المؤمنون إلى عوالم ما عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهل هو أسلوب التشويق إلى هذه العوالم؟، غير أنّ الكاتب اختار بدل الأبواب النوافذ لربط هذا العالم بالأنترنت التي لا نستطيع ولوجها إلاّ عبر برامج Windows، وهذه النوافذ/ العوالم هي: **عالم الدعارة، وعالم الكذب والخداع، وعالم المخدّرات، وعالم البحث عن الحقيقة، وعالم والعلم وسؤال الخلق، وعالم العلم مرّة أخرى، أرض النور**، ولكلّ عالم منها شخوصه وأحداثه ومدخله ومخرجه وألوانه وصفاته التي تختلف كلّ الاختلاف عن العالم الواقعي، ولكنّها تؤثّر فيه.

خاتمة: تخلّت الرواية عن بعض أدواتها الكلاسيكية كالورق والطبع والنشر والتوزيع وما يتبع ذلك من سلبيات، لتدخل عالم الإبداع الالكتروني الذي استعان فيه الكتّاب بوسائط التواصل الجديدة لإيصال إبداعاتهم إلى أكبر عدد من القرّاء وبأبسط الطرق، من خلال استغلال التقنية في ابتداع أشكال نصيّة وسردية جديدة كالرواية الفايسبوكية ورواية الإيميلات، ورواية المدوّنات الالكترونية التي اصطلح عليها برواية الواقعية الرقمية.

وقد أفاد الروائيون من هذه المضامين الالكترونية وأشكالها النصّية في ابتداع لغة روائية جديدة، وحداتها اللغوية من القاموس التقني، وصورها الأدبية من الخيال العلمي، وأسلوبها المشوّق نتاج المزج بين الصوت والأغاني والصورة والألوان والفيديو والأفلام، وقارئها الشاب العربي الذي يقضي ساعات أمام شاشة الحاسوب يتواصل مع العالم.

مراجع البحث:

- إبراهيم عبد المجيد: رواية في كل أسبوع يوم جمعة، الدار المصرية اللبنانية، 2009.
- أحمد خالد مصطفى: رواية أرض السافلين، دار عصير الكتب للنشر والتوزيع، 2017.
- أشرف نصر: رواية حرية دوت كوم، دار شرقيات، القاهرة، 2008
- أماني فؤاد: الرواية وتحرير المجتمع، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2014
- بدر أحمد: علم المكتبات والمعلومات: دراسات في النظرية والارتباطات الموضوعية القاهرة، دار الغريب، 1996.
- حليم بركات: المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث في تغيير الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2000.
- داود ياسين، ابتسام.2016 م. رواية صمت الملائكة، الطبعة الأولى، دار فضاءات–الأردن.
- زاهر راضي: استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي، مجلة التربية، ع15، جامعة عمان الأهلية، عمان، 2003.
- زهور كرام: الأدب الرقمي، أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.
- سعيد يقطين: من النص الى النص المترابط مدخل الى جماليات الابداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004.
- صلاح الدين بوجاه: في الواقعية الروائية: الشيء بين الوظيفة والرمز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993.
- صلاح فضل: قراءة الصورة وصور القراءة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1997

– عبد المجيد الحسيب: الرواية العربية الجديدة واشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1 ،2014.

– علي جعفر العلاق: شعرية الرواية، علامات في النقد، المجلد 6، الجزء 23، 1997

– عمر زرفاوي: الكتابة الزرقاء، كتاب الرّافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، عدد 56، أكتوبر 2013.

– فاطمة البريكي: مدخل الى الادب التفاعلي، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2006.

– فريدة فراولة: التواصل الالكتروني في دراسة من واقع الحياة الالكترونية، مجلة أمواج اسكندرية، قصر ثقافة الاسكندرية، ع 29. 2006.

– كلثوم بيبيمون: السياقات الثقافية الموجّهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، إضافاتالعددان33–34، شتاء – ربيع2016.

– مازن عرفة: سحر الكتاب وفتنة الصورة، من الثقافة النصية الى سلطة اللامرئي، التكوين للنشر والترجمة، دمشق، ط1.

– محمود عبد الوهاب: ثريا النص (مدخل لدراسة العنوان القصصي)، دار شؤون، بغداد، 1995.

– مصطفى عطية جمعة: شعرية الفضاء الالكتروني، قراءة في منظور ما بعد الحداثة، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2016.

– مصطفى عوفي–زينب عمراني: الهوية الوطنية في ظل تكنولوجيا الاعلام والاتصال الحديثة، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة بسكرة العدد04، ديسمبر 2012.

– نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، 2001.

الهوامش:

[1]– بدر أحمد: علم المكتبات والمعلومات: دراسات في النظرية والارتباطات الموضوعية القاهرة، دار الغريب، 1996، ص 309.

[2]– زاهر راضي: استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي، مجلة التربية، ع15، جامعة عمان الأهلية، عمان، 2003، ص23.

[3]– فريدة فراولة: التواصل الالكتروني في دراسة من واقع الحياة الالكترونية، مجلة أمواج اسكندرية، قصر ثقافة الاسكندرية، ع 29. 2006، ص 125.

[4]–فاطمة البريكي: مدخل الى الادب التفاعلي، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1 ، 2006، ص 49.

[5]– مصطفى عطية جمعة: شعرية الفضاء الالكتروني، قراءة في منظور ما بعد الحداثة، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2016، ص59.

[6]– عبد المجيد الحسيب: الرواية العربية الجديدة واشكالية اللغة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1 ،2014، ص31-32.

[7]–صلاح فضل: قراءة الصورة وصور القراءة، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1997، ص77.

[8]–فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي ص 93.

[9]– صلاح الدين بوجاه: في الواقعية الروائية: الشيء بين الوظيفة والرمز، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص58.

[10]–زهور كرام: الأدب الرقمي، أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص 88.

[11]–عمر زرفاوي: الكتابة الزرقاء، كتاب الرّافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، عدد 56، أكتوبر 2013، ص194.

[12]–نبيل علي: الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، 2001، ص 490.

[13]–فاطمة البريكي: مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، ص 151.

[14]–مازن عرفة: سحر الكتاب وفتنة الصورة، من الثقافة النصية الى سلطة اللامرئي، التكوين للنشر والترجمة، دمشق، ط1، ص 340.

[15]–سعيد يقطين: من النص الى النص المترابط مدخل الى جماليات الابداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004، ص111.

[16]–المرجع نفسه، ص 111.

[17]– كلثوم بيبيمون: السياقات الثقافية الموجّهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، إضافات العددان33–34، شتاء-ربيع،2016، ص 77.

[18]– المرجع نفسه، ص 76

[19]–مصطفى عوفي–زينب عمراني: الهوية الوطنية في ظل تكنولوجيا الاعلام والاتصال الحديثة، مجلة علوم الانسان والمجتمع، جامعة بسكرة العدد04، ديسمبر 2012، ص16.

[20] – محمود عبد الوهاب: ثريا النص (مدخل لدراسة العنوان القصصي)، دار شؤون، بغداد، 1995، ص 31.

[21]– كلثوم بيبيمون: السياقات الثقافية الموجّهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي، ص 76

[22]– أماني فؤاد: الرواية وتحرير المجتمع، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2014، ص151

[23]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[24]– المرجع نفسه، ص 153

[25]–إبراهيم عبد المجيد: رواية في كل أسبوع يوم جمعة، الدار المصرية اللبنانية،2009، ص7

[26]- المصدر نفسه، ص 22

[27]- أماني فؤاد: الرواية وتحرير المجتمع، ص 151

[28]- إبراهيم عبد المجيد: رواية في كلّ أسبوع يوم جمعة، ص 19

[29]- ابتسام داود ياسين: رواية صمت الملائكة، دار فضاءات، الأردن، ط1، 2016، ص38

[30]- المصدر نفسه، ص 39

[31]- المصدر نفسه، ص 42

[32]- المصدر نفسه الصفحة نفسها.

[33]- ابتسام داود ياسين: رواية صمت الملائكة، ص 99-100

[34]- المصدر نفسه، ص 112

[35]- المصدر نفسه، ص 120

[36]- المصدر نفسه، ص 168

[37]- المصدر نفسه، ص 171

[38]- ابتسام داود ياسين: رواية صمت الملائكة، ص 172

[39]- أشرف نصر: رواية حرية دوت كوم، دار شرقيات، القاهرة، 2008، ص7

[40]- حليم بركات: المجتمع العربي في القرن العشرين، بحث في تغيير الأحوال والعلاقات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2000،ص 62

[41]- علي جعفر العلاق: شعرية الرواية، علامات في النقد، المجلد 6، الجزء 23، 1997، ص100-101.

[42]-أشرف نصر: رواية حرية دوت كوم، ص11

[43]-المصدر نفسه، ص23

[44]-أشرف نصر: رواية حرية دوت كوم، ص37

[45]-المصدر نفسه، ص48

[46]–المصدر نفسه، ص55

[47]–المصدر نفسه، ص69

[48]– المصدر نفسه، ص73

[49]–أنواع الأنترنت ثلاثة وهي: الانترنت العادي | surface web : النوع الاكثر انتشارا ومن الأمثلة عليه مواقع التواصل الاجتماعي مثل يوتيوب تويتر فيسبوك وتطبيقات التواصل واتساب سناب شات الخ، ويضم جميع الخدمات التي تظهر بشكل متكرر، والانترنت العميق | Deep Web ويضم الخدمات التي لا يتكرر ظهورها للعامة مثل مواقع وقواعد بيانات السجلات الأكاديمية والطبية والعسكرية والتي بمعنى أشمل تتطلب تحقق أكبر عند الدخول، والانترنت المظلم | Dark Web وهذا النوع من أكثر الأنواع غرابة حيث يضم الكثير من الخدمات التي لا تخطر على بال ولا يمكنك تصديقها فبيئة الانترنت المظلم مشفره تماما ومبنية بشكل يصعب الدخول اليها بالطرق العادية والشائعة حيث أن الوصول له يتطلب تشفير معين بحيث لا يتم الكشف عن هويتك أ و عن هوية السيرفر المقدم للخدمة. ينظر:
https://www.fab2.info/2018/02/dark-web.html

[50]– أحمد خالد مصطفى: رواية أرض السافلين، دار عصير الكتب للنشر والتوزيع، 2017، ص 11

[51]– أحمد خالد مصطفى: رواية أرض السافلين، ص 11

[52]– المصدر نفسه، ص 11

[53]– المصدر نفسه، ص 12

[54]– المصدر نفسه، ص 14

[55]– المصدر نفسه، ص 13

[56]– المصدر نفسه، ص 15

[57]– أحمد خالد مصطفى: رواية أرض السافلين، ص 15–16

[58]–المصدر نفسه، ص 16

[59]– المصدر نفسه، ص 18

[60]–أحمد خالد مصطفى: رواية أرض السافلين، ص 17